

الملخص

إنه لمن الخطأ أن نعتبر العنف ظاهرة يمكن التخلص منها كليا ذلك لعدة أسباب أهمها أنه وسيلة من وسائل التربية و أحد الطرق التي يمكن به استرجاع الحق و في هذه الحالة يتخذ طابعا مشروعا بل و يصبح مؤسسا فإن تملك سكينا لا يعطيك الحق بأن تقتلني ، و إن كان العنف مقبولا في بعض المواقف و بعض المؤسسات التنشئة الاجتماعية كالمدرسة و غيرها فإنه غير مقبول و لا مبرر البت داخل المؤسسات الدينية و بخاصة المسجد لما يحمله من مكانة مقدسة لذا الفرد و المجتمع في آن و نظرا لما يحتويه من منظومة قيمة هو الحريص الوحيد لإعطائها لكن لمن يريد لها أو يؤملها .

تفصح العدوانية الوحشية الكامنة داخل الإنسان الذي يفقد كل احترام لبني جنسه و هذا حسب سيغمون فرويد

مدخل عام:

قبل أن ننطلق في وضع هذه الورقة للنقاش علينا أن نتفق على أن مسئولة العنف ليست طبيعة بشرية فحسب و إن كانت عند هذه الطبيعة تطرح عدة تساؤلات هي في جوهرها تحاول على الأقل المعرفة الحقيقية الكامنة وراء ظاهرة العنف بكل أشكالها ومظاهرها و أنواعها

قد لا يختلف اثنان في أن لجوء الفرد إلى العنف أن لم يكن دفاعاً عن النفس فهي المصلحة أياً كان نوعها، وبعودة سريعة إلى تاريخ بدء البشرية سنجد أن أول شكل من العنف كان القتل وحادثة قتل قبيل لأخيه هابيل و في قوله تعالى :

" لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين {28} إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين {29} فطوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين {30}

إن الفروقات المادية و حتى الفكرية بين أفراد المجتمع، تجعل ما يسمى بالحدود والغيرة يتربى و إن لم يجد هذا الحد والغيرة بالمقابل إيماناً فإنهما سيبقيان متربصان حتى يلجأ إلى العنف ليشفى بعضاً من غليله هكذا يبدوا له (الفرد).

جاء في مقال للأستاذ عياد أحمد تحت عنوان "الإبعاد المعرفية للعنف" إن العنف بالدرجة الأولى حالة تدرس بذاتها و لكن ليست مستقلة عن موجهاتها ومبرراتها التاريخية وهو بالدرجة الثانية حالة مركبة من حيث ظهورها وإيذائها و ترابطها ، حالة ذاتية لها موضوعها ، وهو بالدرجة الثالثة يتسم بالأداء الفردي و الأداء الجماعي 1 .

إن العنف عند ماركس فيير فهو فعل اجتماعي ، فهو ظاهرة تخص المجتمع و ليس الفرد العنيف فقط ، لذا يجب تفسيره على ضوء موجهاته التي هي في الغالب موجهات كل الأفعال الاجتماعية كالأعراف ، العاطفة، المنفعة و العقل، و مع كل هذا فإن مفهوم العنف لا يزال مصطلح هلامي المعالم و الأبعاد فلا يحده شيء و ليس له مدلول ثابت في العقل و الوجدان 2

في معرض مقاله "الشباب و العنف في الوقت الراهن" يشير الأستاذ محمد داود فيه بأن فكرة العنف تحمل في طياتها قيماً قد تكون إيجابية أو سلبية انطلاقاً من الموقع الذي يحتله الأفراد أو المجموعات الذين يمارسونه ضد الآخرين و نظراً لكون كلمة "

عنّف " متعددة الدلالات و تخضع في معالجتها للعديد من النظريات العلمية و تقاربها في مختلف العلوم الإنسانية (من علم الاجتماع، علم النفس و الأنثروبولوجية و علم السياسة) فإن الاهتمام بها كظاهرة اجتماعية حديث جدا إذا استثنينا بعض الأعمال الفكرية التي خصصت لهذا الموضوع (سيغمون فرويد جورج صموال ، جرار ريني، جون بول سارتر، والتر بن يمين ...).

و في هذا الصدد تشير فرونسواز إيرتي إلا أن الكلمة نفسها غير موجودة كمدخل في الموسوعة العالمية و ذلك في طبعها لسنة 1966 ، لكن بروز هذه الظاهرة في هاذ العصر اتخذها أوجه متباينة و متنوعة ، جعل الحديث عنها يأخذ حصة الأسد في البرامج الإعلامية و يشغل وسائل الاتصال الجماهيرية بشكل واسع .

الإشكالية العامة:

إن القارئ لعنوان هذه المقالة سيجد غرابة إن لم اقل تناقض إذ كيف يعقل أن تكون مظاهر العنف في المؤسسات الدينية و بخاصة في المسجد؟
و قبل أن نجيب على هذه الإشكالية العويصة يلزم علينا أن نعطي تعريفا للمسجد.

المسجد اشتقاقا هو المكان المعد للسجود ، واختيار عنصر السجود كما ورد في إحدى مداخلات الأستاذ خواجه — في منظومة العبادة الدينية لتعميمه على التركيبة العامة للمؤسسة دلالة على أهمية النصر وقوته. فالسجود رمز إخضاع رمزية الأنف لقوة أعلى. ومفهوم المسجد قديم يعود إلى ما قبل الوجود الإسلامي (أصحاب الكهف) إذن ما الغاية من بناء المسجد؟

المسجد مؤسسة اجتماعية ينشئها المجتمع المسلم لتعليم مبادئ الإسلام وقيمه وهو رمز الإسلام حيث لا صلاة و لا أذان و لا جماعة و لا إسلام بدون مسجد.

مما يتشكل المسجد؟ يتشكل المسجد من عناصر بشرية وعناصر مادية تكوينية تضمن هيكلتها، فالمستوى البشري يضم الأئمة والواعظ و المدرسين، أما المادي فهو البنية بكل محتوياتها التراثية والمعاصرة.

فما هي وظيفة المسجد ؟ تتجلى وظيفة مؤسسة المسجد في ذلك الجو الذي يصبح مجال خصب من المشاعر و الانفعالات العاطفية و الأحاسيس و تدعيم التآلف والحاجة إلى الانتماء ، أضف إلى ذلك تعلم الفرد تنظيم حياته الاجتماعية و إذابة الفوارق الاجتماعية و الطبقية و كل العصبية الأخرى و تشكيل نظام من العلاقات مع الآخرين. إن حركت التجديد التي عرفها العالم و التي دعت إلى ميلاد الأديان أو بتعبير أصح بعث لا أديان من جديد، خاصة بعد أحداث 11 سبتمبر 2001 جعل كل الدول تخضع مؤسساتها الدينية للرقابة و التوجيه خوفا مما تسميه الإرهاب.

أسباب العنف:

حتى لا نغوص كثيرا في ماهية مؤسسة المسجد سنعود إلى إشكالية هذه الورقة المتمثلة في " العنف في المؤسسات الدينية " بودنا أن نركز على أهم فترة عرفتها الجزائر الحديثة و هي فترة الثمانينات و ما تلاها خاصة لما تميزت به من عنف و إلى أي حد توأمت المؤسسة الدينية المتمثلة في المسجد في تلك الفترة.

لا شك أن الجزائر خلال هذه المرحلة شهدت انفتاحا على الديمقراطية و عجت الساحة السياسية بالحركات الوطنية منها و الإسلامية و التي تفتنت إلى أهمية المنابر المسجدية و خطورتها و لأنها الوحيدة التي تستطيع أن تأثر دون غيرها لأنها تتفق مع مؤسسة المسجد في عنوان واحد هو الإسلام . فظهرت مفاهيم كالعمل الدعوي والسلف والحركية وغيرها من المفاهيم الدخيلة الآتية من أفغانستان و لباكستان ، ولعل أهم ما حملته هذه الفترة من جديد و بخاصة في المسجد الجمهور الجديد لهذه المؤسسة الذي أصبح من الشباب بعد أن كان ينذر وجوده و خلف هذه القاعدة كانت تركض

جماعات تحاول تنظيم نفسها بسرعة و بجدوء ،المهم في هذه الفترة هي الخطب النارية التي كانت تدعو للتغيير تتضمن عنفا ضمينا خاصة أن الذين أتبعوا هذه الاتجاهات كانوا صغارا ولا احد يعرف كيف تكونوا ولا متى أصبحوا فقهاء ،إنما بداية لأوج مظاهر العنف التي لا زالت بعض رواسبه إلى الآن خاصة عند المتطرفين الذين يرفضون الآخر بحجة تكاد تكون في " أن الذي ليس معنا فهو ضدنا" و ستجده متفشيا في بعض المظاهر في دعوى عدم المصافحة، و الصلاة جماعة مع بعضهم ونود أن نشير أنه حتى و لو كان العنف في بعض الأحيان مبررا إلا أنه يبقى عنف أما أن يتخذ كإطار مرجعي متعدد المشارب تنقيد به الدراسات الصهيونية المعاصرة و التي توظفه في دعم إدعاءاتها و تبرير ماتطلق عليه بالحق التاريخي و تحولت صيغت الوعد لإلهي إلى برنامج سياسي ملزم ،الذي افرز خطابا عنيفا حولته الاديلوجية الصهيونية إلى هدف مقدس.

مظاهر العنف

سنقدم في هذا العنصر بعض مظاهر العنف المجردة على مستوى المساجد وليكن على سبيل الأمثلة لا الحصر

1 -الشتم : إن ما يعطيه المسجد من مواعظ و قيم تربوية تجعله بمنأى حتى عن ذكر بعض مظاهر العنف فما بالك بتفشيها ،وخاصة في السنوات الأخيرة حيث هتك بعض الأفراد هيبة المسجد باستعمالهم للألفاظ الغير لائقة بمكانته و وصل بهم الأمر إلى العنف الجسدي .

2 -السرقه: لقد أصبح المصلي غير مطمئن على ممتلكاته داخل الأماكن المقدسة (الأكثر أمانا)، فأصبحت سرقة الأحذية من أكثر الظواهر انتشارا ولا يقتصر الأمر على الأحذية فقط بل يتعداه إلى سرقة أغراض أخرى مثل الهواتف النقالة وحتى بعض الملابس.

3- التزاعات بين المصلين: ويتمثل هذا التزاع خاصة في الأماكن وبالدرجة الأولى عند النساء ففي بعض المساجد نجد بعض النساء يحتكرن الصفوف الأمامية حتى ولو وصلن متأخرات فالأسبقية هن بحكم اقدميتهن في المسجد .

4-عنف الجمعيات: تستغل بعض الجمعيات نفوذها في المساجد وتروج لبعض الأعمال يمكن القول بأنها أعمال حقيرة وهي عملية بيع المخدرات في المساجد ولم تحترم قدسيته، وأيضا يمكن اعتبارها جماعة ضاغطة⁴ على فئات المصلين بحكم مركزها.

إن ذكر هذه الأمثلة لا يعبر كثيرا عن مظاهر العنف التي تظهر في المؤسسة الدينية، إذ ما ذكر الأدهى والأمر التي تتمثل في أحيان كثيرة في الخصومات بين الفاعلين في هذه المؤسسة و نقصد بذلك الأئمة والطلبة، إذ تصل إلى حد وضع محاضر قصد النيل منا لآخر وهذا إذا كان لا يصدق أحيانا لأنه من غير المعقول حصول هذا في مؤسسة كالمسجد والتي هي من أهم وكالات التنشئة الاجتماعية الأساسية في الإسلام ، وقد لعبت دورا مركزيا في بناء السلوكيات الاجتماعية وهيئة المشاعر المجتمعية⁵ ولا يزال مصدر إشعاع في المجتمع الجزائري.

الهوامش:

- (1) عياد أحمد، "الأبعاد المعرفية للعنف"، أعمال المخبر العنف و الدين، دراسة سوسيولوجية، أفريل 2004، ص 48
- (2) فقيه العيد «العنف و لا عنف"، نفس المرجع، ص 51
- (3) خواجة عبد العزيز، مؤسسة المسجد في الجزائر و دورها في بناء مفاهيم الدولة الوطنية " الملتقى الدولي الثامن الموسوم بدور المجتمع المدني في تنمية الدولة أيام 20. 21. 22 نوفمبر 2005.
- (4) محمد السويدي، علم الاجتماع السياسي، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1990 ص 115.
- (5) خواجة عبد العزيز، المرجع نفسه.